نهرو والعرب

الاستاذ محمد وهبي

تعرض الرباط التاريخي الذى ربط بين الهند والعرب منذ قديم الزمن الى خطر الانفصام عند ما وقع الشعب الهندى والعربى تحت نير استعمار طويل جعل كل منهما ينشغل عن الآخر بكفاح مرير ضد اخطار مباشرة هددت الكيان الروحى والحضارى لكل من الشعبين العريقين .

ومع اشتداد ونضوج الحركة الثورية فى الهند والبلاد العربية اتجه كل منهما للآخر يستلهم وحيا منه ويأخذ من تجربته . فى هذه الفترة كان اسم المهاتما غاندى تتردد على لسان كل العرب على أنه حيز مثل على القيادة الواعية التى استطاعت أن تصهر الشعب الهندى فى بوتقة واحدة فيخرج ماردا جبارا يرغم أكبر امبراطورية فى التاريخ البشرى أن تتقبل بدء غروب الشمس عنها .

كان نجم نهرو فى هذه الفترة يلمع بلاشك فى سماء حركة التحرير التى جمعت بين الهند والعرب ، الا أن شمس غاندى كانت تتوسط السماء فى ذلك الوقت .

وعلى هذا فان بزوغ شمس نهرو فى العالم العربى بدأت مع استقلال الهند واستقلال بعض الدول العربية بعدها بقليل . واذا كانت المعركة التى خاضها الشعبان ضد الاستعمار تميزت بالضرواه وتطلبت صلابة وايمانا فان معركة تدعيم هذا الاستقلال تميزت بمشاكل لا حصرلها وتطلبت فوق الصلابة والايمان منهاج علمى ونظرة شاملة مع التزام بالواقع . كل هذه المتطلبات أوفى بها جواهرلال نهرو وأضاف اليها ديناميكية وحيوية ظلا معه الى آخر أيامه .

أهم من ذلك كله فان نهرو بمزجه أبدع ما فى الحضارة الغربية مع كل ما هو اصيل فى الحضارة الشرقية ومزجه الواقعية المادية بالمثالية الانسانية قد استحوذ اعجاب العرب فنظروا اليه كابرز رواد احياء حضارة الشرق . فقد اقتصر غاندى ومعظم زعماء الحركة القومية فى العالم العربى على اشباع المثالية التى تميز بها كل من الشعبين الهندى والعربى الا أن نهرو كان أول من اكسب هذه المثالية صيغة عملية فى سياق حقائق العالم الحديث .

لهذا فقد اتجه القادة العرب الى نهرو عقب استقلال بلادهم يرقبون خطوات صراعه مع معضلات الهند السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويلاحظ هنا ان العوامل التى جعلت من نهرو مثالا يحتذى بالنسبة للقادة العرب لم تنحصر فى اطار ضيق من المبادئ التى وصفها اذ ان اعجاب العرب كان يرجع فى نفس الوقت الى اخلاص نهرو وتكريسه حياته وفكره الى خدمة الجماهير الشعبية فى الهند والى خدمة الانسانية عامة . اذ أن نهرو لم ينشغل بمشاكل الهند الداخلية عن مشا كل العالم الخارجى بل ربط بين الاثنين واعتبر ان العلاقة بينهما عضوية اذا تفاقمت احداها فلابد وان تؤثر على الآخرى .

بسبب كل هذه العوامل أصبح نهرو رمزا لكل الشعوب الاسيوية والافريقية التى تجابه معركة واحدة ضد التخلف والفقر وتقف فى جبهة موحدة ضد أى استعمار مهما كان شكله .

ولكن ماهى تماما العوامل التى جعلت من نهرو رمزا حيا للتقدم فى نظر العالم العربى ؟ أول ما استحوذ على انتباه العرب فى هذا المضمار

كان الطريق الاشتراكى الذى اختطه نهرو للهند ، ولنقول فى صراحة أن كلمة الاشتراكية كانت عند بعض العرب لغزا يحيرهم وفكرة تثير مخاوف كثيرة من خطر الفرق فى حركة دولية لاتخدم الظروف والمصالح الوطنية، كما كانت تعنى عقيدة جامدة تقيد بدل من أن تحرر الامكانيات المحلية . الا أن تتبعهم للطريقة التى طبق بها نهرو الاشتراكية فى الهند أزالت هذه المخاوف والشكوك .

لهذا فانه يمكن القول بأن التحويل الاشتراكى الذى يحدث الآن فى بعض البلاد العربية يدين بالكثير الى رجل الهند العظيم نهرو ، ولكن لايمكن أن نغفل هنا حقيقة هامة أيضا وهى أن الحركة الاشتراكية العربية قد نضجت بشكل سريع بالنسبة للظروف المختلفة ، حتى انها أصبحت مثار اعجاب نهرو نفسه .

وكما كانت اشتراكية نهرو مصدرا استوحى منه العرب اشتراكيتهم كذلك كانت سياسته الداخلية فى أوجهها المتعددة ، وبالذات فقد كان اعجاب العرب كبيرا جدا بنهرو لدعوته ورعايته لسياسة الهند العلمانية خاصة وقد ذاق العرب الأمرين نتيجة اصطناع دولة اسرائيل فى وسطهم على أساس ديني وعنصرى بحت ، ومن ناحية اخرى فان تفهم نهرو لحقيقة اسرائيل كجسر للاستعمار وكأداة ماصة لكل نشاط خلاق فى المنطقة مكن نهرو من قلوب العرب خاصة وان موقفه لم يكن موقف مساومة سياسية ولكنه كان انعكاسا لمبادئ أخلص لها نهرو طول حياته .

ولا يخفى على اصدقائنا الهنود ان العرب لم يعرفوا فى تاريخهم أى اضطهاد لأى أقلية دينية كانت ، ولا حاجة بنا الى الاستشهاد بالمؤرخ المعروف

ارنولد توينبي ويقوله ان اليهود عاشوا دائما فى أمن وطمأنينة بين العرب وان اضطهادهم كان على ايدى الشعوب الاوروبية وأن كان العرب هم الذين دفعوا ثمن هذا الجرم الذى لم يرتكبوه .

اذن فان التسامح الدينى الذى تميز به العرب على امتداد تاريخهم وجد تعبيرا حديثا فى سياسة نهرو ونظرته للحياة .

أما عن تأثير نهرو على العرب فى ميدان السياسة الخارجية فلاشك أنه أوضح وأقوى . فعند استقلال العرب تبين لهم أن المستعمر الذى جلا عن أرضهم مازال يريد العودة بشكل أو بآخر خاصة وأن موقع العالم العربى وأهميته الاستراتيجية فضلا عن امكانياته الاقتصادية جعلت من الرقعة العربية الممتدة من المحيط الأطلسى الى الخليج العربى (الفارسى) منطقة تتصارع فيها كل القوى وتتنافس ، مما عرض العرب الى الكثير من المحن حتى أنواع الضغط السياسى والاقتصادى .

كل هذه الظروف دفعت العرب الى التفكير فى سياسة تحفظ لهم استقلالهم من ناحية وتساعد على تخفيف التوتر الدولى من ناحية أخرى ، ولكن التفكير لم يطل اذ كانت هنالك صيغة سياسية دولية جاهزة وان تكن لم تصل الى حالة النضوج بعد ، تلك الصيغة تمثلت فى سياسة عدم الانحياز ، وكان مقدم هذه الهدية الى العرب نهرو مرة أخرى .

وحدث ماحدث عندما اعتنق العرب الاشتراكية فقد أضافوا الكثير الى فكرة عدم الانحياز ، وأثبتوا قدرتها على الصمود بالرغم من تعرضهم لغزو مفضوح مثل الذى حدث سنة ١٩٥٦ على مصر .

على أن كل ماسبق لنا الاشارة اليه فى هذا المقال من اشتراكية وعلمانية وسياسة عدم الانحياز قد يشرح هذا التجاوب الرائع بين نهرو

والقادة والمثقفين العرب الا ان هناك شئ أبعد من ذلك وأهم، هناك حب الجماهير العربية التلقائى وتعلق رجل الشارع البسيط بشخصية نهرو ، اسأل كيف يمكن شرح ذلك ؟ وأخمن وأقول أنه ربما كان مرجع ذلك عواطف نهرو الجياشة نحو العرب وتلقائيته فى التعبير عنها . وربما كان سبب ذلك تأييد نهرو الحاسم والفورى للعرب خلال كل الأزمات التى مروا بها، ربما كان مرجع ذلك تلك الابتسامة العذبة الصادقة التى كان يقابل بها نهرو الجماهير العربية المحتشدة لاستقباله فى كل مرة زار فيها أحد البلاد العربية .

شئ واحد يمكن القطع به وهو احساس الفرد العربى بأن موت جواهر لال نهرو كان خسارة شخصية لا تعوض .